وأخيراً سَينتهي الجَدَلُ ..

"بين أنصار الكتب وعُشّاق الرّوايات"

بقلم : عدي النابلسي

الإهداء:

إلى أنصار الكتب ..
أولئك الذين يرَون أنّ قراءة القصص والرّوايات؛
لا تُسمِن ولا تُغني من جوع ..

وإلى عُشّاق الرّوايات ..
أولئك الذين لا يقرؤون إلّا القصص والرّوايات،
ويهجُرون الكتبَ الأخرى ..

إليكم أيّها المُجادلون أهدي هذه الرّسالة، وهي التي
ستُنهي الجدلَ بينكم تماماً إن شاء اللّٰه ..

اقرؤوها بتأمّل ..

ثمّة جدلٌ شائعٌ ومستمرٌّ حول قراءة الكتب والرّوايات، أو لنَقُل بين "أنصار الكتب" و"عُشّاق الروايات" -، ولا سيّما من حيثُ الفائدةُ الكامنة في قراءة الكتاب أو الرّواية، فبعضهم يرى بأنّ قراءة الرّوايات هي مجرّد مضيعةٍ للوقت ليس إلّا .. وهُراءٍ لا طائلَ منه، وأنّها لا تُسمن ولا تُغني من جوع ...
وبذلك يحصُر جُلّ تفكيره في قراءة الكتب العلمية أو الثّقافية والفكرية بشتّى أشكالها المختلفة ومجالاتها المتنوّعة.

وفي الحقيقة، هذا ليس مفيداً ومثمراً في جوهره ..
ولا سيّما على المدى البعيد؛ وذلك لأنّ من يكتفي بقراءة الكتب فقط - مهما بلغت قيمتها - فإنّ كلّ ما يفعله هو أنّه يحوّل عقله لجهازٍ أشبه بالحاسوب .. وذلك لكثرة ما يتلقّاه من معلوماتٍ جامدة ونظريّاتٍ ثابتة لا تمكنّه من الغوص في بحور خياله الشّاسعة وسبر أغوارها العميقة واستنهاض قواها الخفيّة، ولا تمكنّه أيضاً من التفكير بين اللّحظة والأخرى بماذا سوف يحدث هنا؟.. أو ما الذي دفع أحدهم للقيام بهذا الأمر؟ .. ومَن؟ وكيف؟ ولماذا؟!..

وبهذا تتجمّد لديه عمليّة التّخيل، وبعض مهارات التفكير الإبداعية الأخرى ..

وتلك المهارات لا نراها - غالباً - إلّا بين سُطور رواية خياليّة شيّقة، ذات حبكةٍ إبداعية.
فهي التي تجنحُ بخيال القارئ وتحلقّ به في سماء هذا الكون الرّحب الواسع، هذا من الجهة الأولى ..

وأمّا من الجهة الأخرى؛ فنرى كذلك مَن يقتصر على قراءةالرّوايات الخيالية، والتي هي خيّاليةٌ فكرةً وسرداً وحواراً .. فيعيش في خيال الكاتب أو عالمه التصويري .. فهذا الذي يتلوّى حزناً على رحيل البطل الأسطوري ..
وتلك التي تتمزّق شجناً على موت بطلها المعَذّب ..
ولربّما تُقيم الحدادَ على روحه إذ يموتُ أيضاً!

وهكذا .. حتى ينسى القارئ أو القارئةُ قراءةَ أيّ كتابٍ ثريٍّ جيّدٍ في أي مجال محدّد.

وهذا بالطبع - أقصد قراءة الرّوايات دون سواها - ربّما يأخذه إلى عالمٍ جديد آخر وينمّي بعض مهاراته اللغويّة والفكريّة، ولكن .. لن يعودَ عليه بالفائدة القصوى (من حيث الفائدة طبعاً)؛ إذ إنّ الوسيلة الأولى والأمثل للتعلّم والتثقيف الذاتي؛ تكمن في قراءة شتّى الكتب الثقافية والفكرية وغيرها من أصناف الكتب كـ (كتب السيرة الذاتية، والتاريخ، والعلوم الإنسانية، والمعاجم، والمتون العلمية وشروحها، وكذلك الموسوعات الأخرى ..

وبصورةٍ عامّة؛ فإنّ القارئ الحاذق الفَطِن، لا يؤمن أنّ هناك كتاباً سيّئاً؛ لأنّه لا بدّ أن يجدَ بذلك الكتاب شيئاً، يعرف كيف يستفيد منه بطريقةٍ أو بأخرى.

وأمّا بالنسبة لمن يرغب بقطفِ ثمار الفائدة الحقيقية من شجرة القراءة المثمرة؛ فليس له سوى حلٍّ واحدٍ - على الأغلب -؛ وهو الذي سوف يُنهي الجدلَ القائم بين "أنصار الكتاب" و"أنصار الرّواية" تماماً، وهو على النّحو التّالي:

ثمّة اختراعٌ يُسمّى بـِ "الميزان"، وكما نعلم بأنّه أساسٌ للعدلِ والتساوي بين أيّ وزنٍ وآخر، وكذلك القراءةُ أيضاً .. فإذا أردنا أن تتساوى كفّتا الميزان فيما يتعلّق بالقراءة الهادفة والمثمرة، بحيث ألّا ترجحَ إحداهما على الأخرى؛ فَـ علينا أن نوازنَ - قدر الإمكانِ - ما بين قراءة الكتب وقراءة الروايات، فالعقل يحتاج زاداً ثقافياً ليكون بأفضل حالاته، وللقلب زادُه أيضاً، أليس كذلك أيُّها القارئ العزيز؟

وبذلك لا نُهمل واحدةً على حساب الأخرى، وبذلك أيضاً نسمح لأنفسنا بأن نعيشَ في عالَمين حقيقيّين ومختلفَين في عالمٍ واحدٍ.

بيساطةٍ، هذه هي الطّريقة المثلى والمثمرة، لتحقيق أقصى فائدة من عمليّة القراءة.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى ما ذكره الكاتب "أدهم شرقاوي" في كتابه (وإذا الصّحفُ نُشِرَت) (ص 154)، في نصٍّ عنوانه:

"نوّع في قراءاتك بين العقل والقلب"، فتأمّل أخي القارئ:

"حياة الإنسان أشبه بعربة يجرّها حصانان هما العقل والقلب، لهذا على الإنسان وهو يقود عربة حياته، أن يُبقي هذين الحصانين في خطّين متوازيين، لأنه إن سبق أحدهما الآخر، قد تنقلب العربة، لذلك قالوا قديماً:
"ضع قليلاً من العقل على قلبك حتّى يستقيم، وضع قليلاً من القلب على عقلك حتّى يلين!".

وكذلك يقول في نهاية النصّ:

"القراءات الأدبيّة كالسّير على الشّاطئ، كلّ ما سيبتلُّ منك قدماك، ولكنّ القراءات الفكرية كالسباحة، يستحيل أن لا تخرج منها مبتلّاً! علينا أن نُغامر قليلاً ونبتعد عن الشاطئ، السّباحة الفكريّة مُغرِية".

وهاهو "مورتيمر آدلر" يوضّح في كتابه (كيف تقرأ كتاباً؟)
- والذي اشترك بتأليفه مع " تشارلز ڤان دورن" - الفروقات التي تميّز الأدب التخيلي من الكتب التفسيرية المتنوّعة، ككتب الفلسفة والتاريخ وغيرها من العلوم الأخرى، إذ يقول:

"القراءة النقدية لأيّ شيء تعتمد على الفهم الكامل من قبل القارئ. وهؤلاء الذين لا يستطيعون أن يقولوا ما الذي أعجبهم في قراءة الرواية هم على الأغلب لم يقرأوها بشكلٍ أعمق من السطح الظاهر. وعلى كل حال هناك أكثر من هذا التناقض الظاهري، فالأدب التخيّلي هو أساساً يُسعِد أكثر من أن يُعلِّم.
ومن الأسهل بكثير أن تكون سعيداً من أن تكون قد عُلِّمت، ولكنّ الأصعب أن تعرف لماذا أصبحت سعيداً، فالجمال أصعبُ في التحليل من الحقيقة.

ويقول أيضاً:

"إنّ الفرق الأساسي قد ذُكِر على كل حال، وهو يعود إلى الفرق بين هذين النوعين من الكتابات. فالكتب التفسيرية تحاول أن توضّح - معرفة عن التجارب التي مرّ بها القارئ أو يمكن أن يمرّ بها - بينما الكتب التخيّلية تحاول أن تُوصل التجربة نفسها، هذه التجربة التي يستطيع القارئ أن يحصل عليها أو يشترك فيها فقط من خلال القراءة. وإذا نجحوا في ذلك فإنّهم يكونوا قد أعطوا القارئ شيئاً لإسعاده. وبسبب هدفهما المختلف فإنّ هذين النوعين من الكتب تتوجّه إلى الذهن والخيال بطرق مختلفة".

"فالكتب التخيّلية تخاطب أساساً الخيال، وهذا هو أحد الأسباب التي جعلتنا ندعوه الأدب التخيّلي. ولأنّه أيضاً على النقيض من العلوم أو الفلسفة التي هي فكريّة بحتة".

ويتابع في السياق نفسه:

"نحن ندين بالكثير للأدب التفسيري - الفلسفة والرياضيات والعلوم - فهي التي شكّلت العالم الواقعي الذي نعيش فيه.
ولكنّنا لا نستطيع العيش في هذا العالم إذا لم نكن قادرين من وقتٍ لآخر أن ننطلق بعيداً عنه.
ولا نقصُد أن نقول بأنّ الأدب التخيّلي هو دائماً أدبُ الهروب من الواقع، بالمعنى العادي للعبارة، فالفكرة في هذه الحالة تبدو تافهة. فإذا كان من المفروض أن نهرب من الواقع فيجب أن يكون هروبنا أعمق أو أكبر باتجاه الواقع".

"بالطّبع نستطيع أن نتعلّم من الأدب التخيّلي – القصائد والقصص وربّما بشكلٍ أخصّ المسرحيّات – ولكن ليس بنفس الطريقة التي تُعلّمنا إيّاها الكتب العلمية والفلسفية. فنحن نتعلّم من التجربة التي نتلقّاها في حياتنا اليوميّة.

ونستطيع أن نتعلّم أيضاً من بديل ذلك أو من الخلق الفنّي؛ أي من التجربة التي تُنتجها الكتب التخيّلية في خيالنا، وبهذا المعنى فإنّ القصائد والقصص تُعلّمنا إلى جانب كونها تُسعدنا.
إنّ الأعمال التفسيريّة لا تُقدّم لنا مع التجربة الروائيّة، إنّها تُعلِّق على مثل هذه التجربة كما حصلنا عليها أو نستطيع الحصول عليها. وهذا هو السبب في صحّة قولنا أنّ الكتب التفسيرية تُعلِّمنا أساساً، بينما الكتب التخيّلية تُعلِّمنا بالاستنتاج من خلال خلق تجربةٍ نستطيع أن نتعلّم منها. ومن أجل أن نتعلّم من مثل هذه الكتب؛ يجب علينا أن نفكّر بأنفسنا في هذه التجربة، ولكي نتعلّم من العلماء والفلاسفة يجب علينا أوّلاً أن نحاول فهم نوع تفكيرهم بالعمل الذي قاموا به".

ثمّ يذكر "المؤلّفان" في الكتاب نفسه، بعضاً من القواعد العامة حول قراءة الأدب التخيّلي، ويمكن لمن يرغب بقراءتها الرجوع إلى الكتاب، والذي هو - كما ذكرنا سابقاً - بعنوان:
(كيف تقرأ كتاباً؟) لـ "مورتيمر آدلر" و "تشارلز ڤان دورن"، وسيجد ذلك مفصّلاً في نهاية الفصل الرابع عشر بعنوان "كيف تقرأ الأدب التخيّلي؟"

إذن، فلا بدّ للقارئ أن يوازن في قراءاته ما بين الكتب الفكرية والثقافية وغيرها .. وبين القصص والرّوايات، وأن يكون عادلاً بينهما حتّى لو رجحت كفّة الميزان أحياناً لأحدهما، المهمّ ألّا يهجر - مثلاً - قراءة الكتب المفيدة والمتنوّعة؛ ويصبّ جلّ اهتمامه وأوقاته على الإبحار في عالم القصص والروايات، وأوّلُ تلك الكتب النافعة وآخرها وبلا منازع؛ كتاب الله سبحانه، فهو خير الكتب جميعاً في إعجازه وبيانه وبلاغته وبراعة الوصف وجمال السّرد القصصي وغير ذلك الكثير ممّا لا يسع حصرُه ببضعة سطور وأوراق ..

ولا ننسى كذلك أيضاً ما احتواه الكتابُ الحكيم من عبرٍ وقصصٍ وفوائد على جميع السّبل والأصعدة التي لا يسع حصرُها أيضاً ..
وفي الوقت نفسه؛ ألّا ينسى نصيبه أيضاً من الخيال والعاطفة؛ فالإنسان كائنٌ عاطفيٌّ أيضاً وليس مجرّد حاسوبٍ خالٍ من المشاعر، وظيفته جمعُ المعلومات واكتنازها، وحصرها في ذاكرته ..
ومن الضّروري أن نأخذَ ذلك بالحسبان، حتّى نقطفَ أطيبَ الثمار وأنفعها من شجرة القراءة المثمرة ..

والله وليّ التوفيق دائماً وفي كلّ حال.

وفي النهاية، أودّ منك أخي القارئ العزيز إن وجدت في هذا الكتاب الصغير شيئاً مفيداً نافعاً، وخاصّةً إن كان لديك صديقٌ لا يكاد الجدلُ ينتهي بينكما حولِ موضوعنا هذا، ولا يرى في عالم القصص والروايات شيئاً ذا نفعٍ وفائدة؛ أو إن كان شغوفاً بقراءة القصص والروايات ولا يعير الكتب الأخرى أدنى اهتمامٍ يُذكَر .. سواءَ أكان هذا أو ذاك؛ فلا تبخل عليه بإهدائه هذا الكتاب الصغير المتواضع، لعلّه يجدُ فيه أيضاً كما وجدتَ أنت فيه، ويعيد النظر في آراءه القرائية السّابقة، ويوسّع بذلك فضاءَها، وبذلك أيضاً يجني أقصى فائدةٍ ممكنة خلال رحلة القراءة.

ولك الأجرُ في ذلك إن شاء الله، والحمد لله دائماً وأبداً ..

* * *

وتذكّر عزيزي القارئ:

"القارئ الحاذق الفَطِن لا يؤمن بأنّ هناك كتاباً سيّئاً؛ لأنّه لا بدّ أن يجدَ بذلك الكتاب شيئاً، يعرفُ كيف يستفيدُ منه بطريقةٍ أو بأخرى".

- المؤلّف.

* * *